آداب الرافدين . عدد خاص . مؤتمر كلية الآداب العلمي الرابع العدد(٢/٤٧)١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م

جوانب من التأثيرات البيئية
في الحضارتين العراقية والمصرية
دراسة مقارنة

الدكتور عبد العزيز الياس سلطان
كلية الآداب/ جامعة الموصل

المستخلص:
يتفق معظم الباحثين على ان البيئة الطبيعية هي العامل الأساس في نشأة الحضارات وتطورها، وان العلاقة بين البيئة الطبيعية، مسرح الحدث والإنسان صانع الحدث علاقة أزلية، ومع اننا نقدر ما للبيئة الطبيعية من دور كبير في تحديد السمات الأساسية للحضارة، إلا اننا يجب ان لا نغفل دور الإنسان وإبداعاته الفكرية وجهوده الفعلية وصبره وكفاحه في هذه العملية، وقد أثرت البيئة الطبيعية في حياة وتاريخ سكان العراق القديم ومصر القديمة بشكل واضح، ففي العراق حيث وجود النهرين العظيمين دجلة والفرات والأراضي الزراعية بمساحات واسعة ساعد على قيام مراكز حضارية متعددة في البلاد من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه.

المقدمة :

ان عنف البيئة الطبيعية كفيضان دجلة والفرات المدمر الذي يخالف موعده مواسم الدورة الزراعية وكذلك التفاوت الشديد في درجات الحرارة بين الليل والنهار والصيف والشتاء، كل ذلك جعل الفرد العراقي القديم أمام تحديات صعبة وترك في نفسه شعورا بالقلق وعدم الطمأنينة إزاء الطبيعة ومعطياتها[٢] فانعكس ذلك في معتقداته وآدابه وسلوكه كما اثر في بلورة الأفكار الخاصة بنظام الحكم ونظرة المجتمع إلى الملكية، وكان لافتقار السهل الرسوبي في العراق إلى المواد الأولية الضرورية لبناء الحضارة الأثر البارز في اهتمام العراقيين القدماء بالتجارة وطرق المواصلات وتأمينها[١].

أما في مصر فقد كان للبيئة الطبيعية أثرها البارز في الحضارة والتاريخ المصري القديم إذ منحت البيئة الطبيعية مصر موقعا جغرافيا ممتازا بعزلته عن الأقوام الأخرى وحدود طبيعية لا يمكن للغزاة اجتيازها إلا بإعداد كبيرة [٣] وتتميز مصر بوفرة نسبية من المواد الضرورية كالحجارة والذهب والنحاس وغيرها، يضاف إلى ذلك الضمان والطمأنينة التي شعر بها المصريون القدماء نتيجة لتوفر

مياه الطمى اللازم لاخصاب الأرض الذي يأتي به فيضان النيل، وكان للشمس أيضا دور بارز في معتقدات المصريين فقد سموها ورأوا فيها الإله الخالص[٤] ومن هذا كله اشتق المصريون القدماء تصوراتهم الأساسية عن الكون والخليقة. والبحث محاولة لإلقاء بعض الضوء على اثر البيئة في تاريخ وحضارة كل من العراق ومصر وأوجه الشبه والاختلاف في ذلك التأثير وفي نواحي منتخبة كالموقع الجغرافي والطوبوغرافية والأنهار بالإضافة إلى اثر البيئة الطبيعية في السمات الأساسية لكلا الحضارتين.

أولا: الموقع الجغرافي:

للموقع الجغرافي أثره البارز في التاريخ العام لأي بلد سواء من حيث اتصالاته بالأقوام المجاورة أم من ناحية الطقس والمناخ الذي يحدد الهوية الاقتصادية للبلد أم في تركيب السكان وتوزيعه، أم غير ذلك مما له أهمية في سير إحداث التاريخ وتطور الحضارة[٥]. وربما كانت الرقعة الجغرافية التي يقع ضمنها كلا من العراق ومصر من أكثر بلدان العالم تأثرا بالبيئة الطبيعية، حيث يقول جورج رو بهذا الخصوص (قد لا يوجد مكان يظهر فيه واضحا تأثير الجغرافية على التاريخ مثلما يظهر في مجموعة البلدان الممتدة من البحر المتوسط حتى الهضبة الإيرانية)[٦].

وقد احتل العراق موقعا إستراتيجيا مهما بموقعه الجغرافي المتميز في جنوب غرب أسيا لكونه يربط القارات الثلاثة أسيا وأوربا وإفريقيا، كما انه يتوسط بلدان البحر المتوسط ذات الحضارة وبلدان الخليج العربي وما ورائها من بلدان الشرق الأقصى. وكان لهذا الموقع دور خطير في الوقت الذي كانت فيه طرق القوافل التجارية تمر في العراق من أسيا في طريقها إلى أوربا كطريق الحرير المشهور والطرق الأخرى القادمة من إيران وقفقاسيا إلى سواحل البحر المتوسط[٧] ان هذا الموقع للعراق كان له اكبر الأثر في نشاط الحياة الاقتصادية ونشاط الاتصال الدائم بين سكان العراق وشعوب البلدان المجاورة والبعيدة سواء كانت عن طريق السلم أم الحرب وكان من الطبيعي أيضا ان يؤثر العراق ويتأثر بحضارات البلدان التي اتصل بها وتاجر معها أو أخضعها تحت نفوذه، أو خضع لنفوذها عندما سيطرت عليه بعض القوى الأجنبية عبر فترات مختلفة إلا أن تأثيره كان دائما ابعد وأعمق وما انتشار الخط المسماري واللغة الاكدية إلا دليل واضح عن هذا التأثير.

يقع العراق في القسم الجنوبي من المنطقة المعتدلة بالنسبة لخطوط العرض مما يعني انه يعد منطقة انتقال بين المناخ الصحراوي الحار ومناخ البحر المتوسط[٨] فيصبح مناخ المنطقة الجبلية يماثل مناخ البحر المتوسط حيث يبلغ معدل التساقط السنوي بين ١٠-٤٠ سم وهذا مؤشر لمناخ المنطقة

التي نشأت فيها الحضارة في بلاد آشور، أما مناخ السهل الرسوبي والهضبة الغربية فيسودها المناخ الصحراوي ويبلغ معدل التساقط فيها بين ٥–٢٠ سم وهذا مؤشر لمناخ المنطقة التي نشأت فيها الحضارة في بلاد بابل، أم مناخ منطقة الهضبة فهو مناخ (انتقالي) إذ يبلغ معدل التساقط السنوي فيها بين ٢٠ – ٢٥سم وهذا مؤشر لمناخ المناطق التي تخضع للسيطرة الأشورية حينا وللسيطرة البابلية حينا آخر[٩]. أما اغلب رياح العراق فهي شمالية وشمالية غربية وهي رياح باردة وممطرة وهناك رياح جنوبية شرقية تصحبها أمطار أحيانا في الشتاء وهناك رياح جنوبية تتميز بحرارتها العالية ورطوبتها الخانقة[١٠].

لقد كان لظاهرة تبدل المناخ في العصور الجيولوجية اثر مهم في نشوء الحضارة الأولى ذلك ان حلول مرحلة الجفاف الأخيرة في الشرق الأدنى (بعد آخر عصر جليدي في أوربا) والتي كانت تسبقها عصور مطيرة جعل من المتعذر على الإنسان القديم الاعتماد على حياة الصيد وجمع بذور النباتات التي كانت سائدة في العصور الحجرية القديمة[١١] فاهتدى الإنسان ولاسيما في شمال العراق إلى إنتاج غذائه بواسطة الزراعة وتدجين الحيوانات. ويمثل موقع (كريم شهر) القريب من جمجمال و(ملفعات) بين اربيل والموصل و(زاوي جمي) قرب كهف شانيدر القريب ومن راوندوز أقدم المواقع التي استقر فيها الإنسان، ويرجح الباحثون ان زاوي جمي كانت مستوطنا فصليا، حيث يستقر فيه الإنسان في موسم الصيف وانه كان يلجأ إلى كهف شانيدر القريب في موسم الشتاء[١٢] غير ان موقع جرمو وحسونة ومطارة وأم الدباغية وغيرها الكثير كان تمثل بالتأكيد قرى دائمية مارس فيها الإنسان الأول الزراعة. والدليل على ذلك مخلفاته الأثرية التي تركها لنا والتي كانت من بينها أدوات الحصاد، وطحن الحبوب ومخازن للمحاصيل الزراعية وعظام لحيوانات مدجنة[١٣] وتشير الدلائل الجغرافية إلى انه لم تطرأ تبدلات أساسية في أحوال القطر المناخية منذ ان استوطن الإنسان السهل الرسوبي ما بين الألفين السادس والخامس ق.م وربما قبل هذه المدة وهناك من يرى انه لم يحصل تبدل مهم في مناخ العراق منذ المرحلة التي سكن فيها الإنسان أم الدباغية بحدود ثمانية آلاف سنة [١٤].

وقد اثر الموقع الجغرافي للعراق وبيئته الطبيعية الغنية بمواردها، ولاسيما سهله الرسوبي بين منطقتين متشابهتين من حيث افتقارهما للموارد الطبيعية متباينتين من حيث المناخ والتضاريس. الأولى هي المنطقة الجبلية في الشرق والشمال الشرقي والمعروفة بفقرها في مواردها بسبب ضيق الأراضي الصالحة للزراعة. والثانية هي منطقة البوادي الصحراوية في الغرب والجنوب الغربي وبين هاتين المنطقتين يمتد سهل بلاد الرافدين إقليما مفتوحا لا يفصله عنهما أي حاجز طبيعي، باستثناء نهر

دجلة بالنسبة للمنطقة الجبلية، ونهر الفرات بالنسبة للمنطقة الصحراوية[١٥]. ولقد كان لذلك اثر كبير في تركيب السكان وتحديد أماكن الاستيطان على ارض العراق فمن الجزيرة العربية والبوادي الشمالية الغربية مهد الأقوام العربية القديمة اندفعت إلى العراق موجات متتالية من الأقوام الجزيرية واستقرت في مناطق مختلفة من ارض العراق، ومن الشرق والشمال الشرقي غزت الأقوام الهندية – الأوربية الجبلية الرعوية المتخلفة حضاريا العراق، وكانت الهجرات الجزيرية على نطاق واسع إلى درجة أنها كونت في نهاية الأمر الجزء الأعظم من سكان العراق في حين تغلغلت بعض الأقوام الهندية – الأوربية واستقرت بين السكان في أثناء الغزو تعرض له العراق من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية وهكذا كان للهجرات السكانية المتكررة وغزوات الأقوام الهندية – الأوربية المجاورة المتلاحقة اثر حاسم في تكوين التركيبة النهائية لسكان العراق.

أما مصر فإنها تقع عند التقاء أسيا بأفريقيا قريبا من السواحل الأوربية الجنوبية وتمتد سواحل مصر على طول شواطئ البحر الأحمر والبحر المتوسط وقد اكسبها هذا الموقع أهمية خاصة وسمح لها الاتصال حضاريا منذ وقت مبكر مع موطن الحضارات القديمة الأخرى وفي مقدمتها العراق وسوريا وكريت وبلاد اليونان[١٦] وعلى الرغم من موقع مصر الهام واتصالها بالحضارات القديمة، إلا أنها كانت شبه معزولة عن البلدان والأقاليم المجاورة، ويقول ويلز بهذا الخصوص "بينما كانت بابل موطأة الأكتاف للغزو ومن كل جانب، كانت مصر بمنجاة من الأعداء بما قيض الله لها من صحراء في غربها وصحراء وبحر في شرقها على حين لم يكن يجاورها جنوبا غير شعوب الزنج، وعلى ذلك كفى تاريخها شر من يقطع عليه سبيله ضد غزوات الأجناس البشرية، أكثر مما كفى تاريخ آشور وبابل"[١٧].

وبهذا فقد حمت الطبيعة مصر من كل الجوانب مما ساعدها على مقاومة الغزوات الخارجية التي جاءت إلى مصر والتي تعتبر قليلة بالنسبة إلى تاريخها الطويل بالمقارنة مع مواطن الحضارات القديمة مثل العراق وبلاد الشام[١٨].

أما مناخ مصر فجاف وعديم المطر تقريبا إذ لا يتجاوز (المعدل السنوي ٣٣سم في الوقت الحاضر) غير ان الأحوال المناخية في الماضي كانت تختلف عما هي عليه في الوقت الحاضر ففي العصر الجيولوجي المسمى (بلايستوسيك) الذي حدث في العصور الجليدية في أوربا كان يقابله عصور مطيرة في معظم أنحاء الشرق الأدنى القديم فالمياه كانت تملأ الوديان اليابسة، والنباتات والحيوانات كانت كثيرة في مناطق الصحاري، وقد دلت على ذلك الآثار التي تركها لنا الصيادون الأوائل في العصور الحجرية على الضفاف التي عملت نهر النيل[١٩]. وبعد انتهاء آخر عصر جليدي عم

الجفاف صحاري أفريقيا مما اضطر الإنسان المصري القديم إلى مغادرة تلك الصحارى والتقدم نحو الوادي واستوجب ذلك منه قطع الأحراش والأشجار وتجفيف الاهوار والمستنقعات وتهيئة الأرض التي سيعيش عليها والتي أصبحت فيما بعد الشريط الأخضر الذي يمتد على جانبي نهر النيل لمسافة (١٠٠٠) كم مكونا وادي النيل الذي هو عبارة عن سهل رسوبي شديد الخصوبة يكسوه نهر النيل بطينه عاما بعد عام. وكان له الفضل الكبير على مصر وسكانها منذ العصور الحجرية الحديثة وحتى الآن[٢٠] ولولاه لتحولت ارض مصر إلى صحراء قاحلة خصوصا وان البلد يكاد يكون عديم المطر وقد شكل هذا الوادي ونهره العظيم منطقة جذب لسكان مختلف أقسام مصر الجغرافية منذ عصر الجفاف والذين يرجعون بأصولهم بحسب بعض الآراء إلى القبائل الحامية الأولى التي نزحت إلى مصر من شرق أفريقيا والتي اندمجت مع العناصر الجزرية التي جاءت إلى مصر على شكل هجرات متتالية منذ الألف الرابع ق.م. أما عن طريق برزخ السويس في سيناء، أو عن طريق وادي الحمامات عبر البحر الأحمر. ومن تمازج هذه الأقوام (الحامية والجزرية) ظهر شعب موحد هو الذي اوجد مصر التاريخية والذي لم يتغير كثيرا عبر التاريخ [٢١].

الطوبوغرافية:

تتميز الأرض في كل من العراق ومصر بتضاريس خاصة نهضت بدور فاعل في قيام حضاراتهم القديمة وأثرت هذه التضاريس في حياة الإنسان في كلا البلدين وعلاقاتهم الداخلية والخارجية. وسطح العراق يتباين بشكل كبير من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وتضم أراضيه مناطق سهلية وصحراوية وجبلية، فضلا عن وفرة المياه التي تعددت مصادرها، حيث هناك النهران العظيمان دجلة والفرات وروافدهما وهناك العيون والينابيع والاهوار والبحيرات إضافة إلى الإمطار التي تعد من أهم المصادر الحيوية لقيام الحضارة القديمة وخاصة في القسم الشمالي. ان هذا التباين في سطح ارض العراق أدى إلى حدوث تنافس وصراع بين الأقوام القديمة من اجل السيطرة على الأراضي الخصبة المتمثلة بسهول ووديان العراق، حيث اندفع سكان الجبال والصحاري تدريجيا باتجاه هذه البقعة عندما بدأت ظروف المناخ بالاستقرار بعد آخر زحف جليدي.

يضم القسم الشمالي من سطح العراق منطقتين شرقية وغربية يفصل بينهما نهر دجلة. تتكون المنطقة الشرقية منه والتي تقع شرق نهر دجلة من سلاسل جبلية يتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠٠ – ١٢٠٠٠ قدم بالقرب من الحدود الإيرانية والتركية، وتنتشر في هذه المنطقة الكثير من الكهوف والملاجئ الصخرية التي استخدمها إنسان العصور الحجرية القديمة وتوجد فيها بعض المسالك

الوعرة[٢٢] كما تنبع منها روافد دجلة التي تكون بدورها سهولا ووديانا في مناطق الموصل واربيل والسليمانية وكركوك وجزء من ديالى وتعرف هذه المنطقة بالشبه التلية وقد كان لهذه المنطقة دور كبير في قيام الحضارة العراقية القديمة حيث تم فيها الانتقال من مرحلة جمع القوت إلى مرحلة إنتاج القوت. كما ازدهرت فيها قرى العصرين الحجري الحديث والمعدني، وقامت على ربوعها الدولة الأشورية التي لعبت دورا كبيرا في صد الأقوام والقبائل الجبلية التي كانت تحاول السيطرة على السهل الرسوبي حيث مركز الحضارة السومرية والاكدية[٢٣] أما القسم الذي يقع إلى الغرب من نهر دجلة فيعرف بإقليم الجزيرة وهو هضبة واسعة ذات تربة صالحة للزراعة تكثر فيه العيون والينابيع فضلا عن تمتع هذه المنطقة بنسبة من الإمطار تتراوح بين ٢٠–٤٠ سم أو اقل من ذلك وقد أعطت هذه الميزات الطبيعية المذكورة أهمية خاصة لمنطقة الجزيرة دفعت الإنسان القديم إلى الاستقرار فيها منذ عصور ما قبل التاريخ مرورا بالعصور التاريخية وما زالت حتى اليوم تحتفظ بكثافة سكانية مناسبة[٢٤].

أما السهل الرسوبي فيشغل الأقسام الوسطى والجنوبية من العراق حيث يمتد من سامراء حتى رأس الخليج العربي ويخترقه النهران الخالدان دجلة والفرات اللذان كانا وما زالا عصب الحياة له أما أمطاره فقليلة، لهذا كان الري الصناعي وشق القنوات والترع من أهم الأعمال التي قام بها المستوطنون الأوائل في هذا السهل، وكانت الفيضانات المدمرة والمفاجئة من أهم المشاكل التي واجهها العراقيون الأوائل في هذا السهل، وتعد الملوحة التي طغت على معظم [٢٥] أجزائه من المشاكل التي واجهها ساكنوه أيضا واليها يعزو البعض سقوط سلالة أور الثالثة وربما سببا في انتقال الحضارة من الجنوب إلى الوسط ومن ثم الشمال، كما كان لافتقار السهل الرسوبي إلى المواد الأولية كالحجارة والمعادن والأخشاب وغيرها من مستلزمات البناء الحضاري دافع لسكان العراق القدماء إلى جلب هذه المواد من مناطق مجاورة أو بعيدة عن طريق التجارة وتكمن الأهمية التاريخية للسهل الرسوبي في كونه مهدا لأقدم وأرقى حضارة عرفها الإنسان أرسى قواعدها السومريون والاكديون والبابليون ومنه انتشرت شرقا وغربا [٢٦].

أما القسم الغربي من العراق فتشغله البادية الغربية الواقعة إلى الغرب من الفرات والتي هي جزء من بادية الشام والجزيرة العربية وهي منطقة صحراوية تشغل زهاء نصف مساحة العراق وتقطعها مجموعة أودية طويلة تنحدر باتجاه العراق وتصب في نهر الفرات. وكانت هذه المنطقة مصدرا لهجرة الأقوام العربية إلى العراق منذ أقدم العصور [٢٧]، ان التباين في طوبوغرافية العراق واكبه تنوع حضاري في طبيعة تكون الحضارة العراقية القديمة والتي تميزت من منطقة إلى أخرى ومن عصر

إلى آخر ففي الجنوب تجسدت حضارة العبيد والعصر السومري وفي الوسط حضارة الاكديين والبابلين وفي الشمال حضارة الآشوريين وجميع هذه الأوجه الحضارية ما هي إلا صيغ متباينة لحضارة واحدة متجددة خلقها التفاعل الحيوي بين أبناء العراق وبيئتهم الطبيعية التي عاشوا في كنفها.

أما مصر فهي الأخرى تتنوع في طوبوغرافية أرضها حيث يوجد هناك ثلاثة أقسام رئيسية من التضاريس لعب كل منها دوراً مهماً في تاريخ وحضارة مصر، الأول هو الوادي الطويل الضيق في الجنوب ويعرف باسم الصعيد أو مصر العليا وحاليا باسم الوجه القبلي أما قديما فقد أسموه المصريون (تو – ريس) وحده الشمالي قرب القاهرة الحالية [٢٨] أما من الشرق والغرب فتحيط به سلسلة جبال حجرية يتراوح ارتفاعها بين (٣٠٠–١٠٠٠ قدم) والوادي سهل خصب يغذيه النيل بالطمي سنويا وكان له الفضل الكبير على سكان مصر منذ العصور الحجرية الحديثة وحتى يومنا هذا[٢٩] ويجري في هذا الوادي نهر النيل الذي يأتيه قادما من الحبشة والسودان ويتجه شمالا مع الانحدار العام للأراضي المصرية، ويكون ثنية كبيرة عند إقليم (قنا) الذي كان لموقعه المتميز اثر كبير في الدور السياسي الذي لعبه في تاريخ مصر، حيث كان بمعزل عن الغزوات القادمة من الشمال أو الجنوب فصار مركزا لمقاومة المعتدين، كما تزعم الوحدة السياسية من العصور الفرعونية. وعند هذه الثنية تضيق المسافة المحصورة بين نهر النيل والبحر الأحمر مما سهل الاتصالات القادمة إلى مصر عبر البحر الأحمر عن طريق وادي الحمامات كما شجع على قيام مدن هامة في هذه المنطقة مثل ارمنت وقوص وقفط وطيبة التي اشتهرت في التاريخ المصري وسماها العرب بالأقصر لما فيها من معابد وقصور [٣٠] ثم يواصل هذا الوادي مسيره شمالا حتى مدينة (منف) حلقة الاتصال مع الدلتا وأطلق عليها أحيانا اسم مصر الوسطى. وعلى مسافة غير بعيدة من الضفة الغربية للوادي يقع إقليم الفيوم الذي يرويه فرع من نهر النيل عرف باسم نهر يوسف. وعبر التاريخ قام في وادي النيل أكثر من عشرين إقليما وكانت في الضفة الشرقية أكثر انتشارا من الغربية وذلك لاتساع الوادي في الجانب الشرقي أكثر منه في الجانب الغربي وقد تمتعت منطقة وادي النيل (الصعيد) بالاستقرار والطمأنينة والثبات وذلك لمناعتها وقلة تعرضها لمخاطر الغزوات مما انعكس ذلك على السكان فجعلهم أكثر تماسكا واتحادا واشد عصبية وحماسا مما كان عليه سكان الدلتا [٣١].
أما القسم الثاني والأكثر أهمية في طوبوغرافية مصر فهو القسم الأسفل منها أو ما يسمى بالدلتا أو الوجه البحري كما يعرف اليوم و(تو–ميحت) كما سماها المصريون القدماء وتبدأ من القاهرة جنوبا

وهي عبارة عن مثلث من الأرض تسقيه فروع نهر النيل والترع المتشعبة منه وعرضها نحو ٢٠٠ ميل وطولها نحو ١٠٠ ميل وهي محصورة حاليا بين فرع دمياط شرقا والرشيد غربا [٣٢]. وتعد الدلتا من ابعد الأراضي المصرية عن الصحراء الأفريقية كما أنها تتأثر بمناخ البحر المتوسط وذلك لقربها منه مما جعلها عرضة للرياح الشمالية القادمة من البحر مما جعل مناخها ألطف من الأجزاء الجنوبية من الأراضي المصرية[٣٣] والدلتا من أوسع بقاع مصر وأغناها وأكثرها كثافة بالسكان في الوقت الحاضر حيث تعتبر واحدة من أكثر بقاع العالم ازدحاما بالسكان ويتركز فيها أكثر من ٩٠% من سكان مصر، وقد لعبت دورا سياسيا بارزا في تاريخ مصر إذ اختارها العديد من الملوك المصريين لتكون عاصمة للدولة الموحدة ففيها بنيت منف والفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة الحالية لتكون كلها عواصم لمصر عبر تاريخها الطويل[٣٤].

أما القسم الثالث والأخير من المكونات الطوبوغرافية لأرض مصر فهو عبارة عن صحاري شاسعة تتوزع على جانبي نهر النيل غربا وشرقا ففي الغرب حيث الصحراء على شكل هضبة مستوية لا توجد فيها جبال وأعلى أقسامها هو الزاوية الجنوبية الغربية الذي ينتهي بجبل العوينات[٣٥]. وفي هذا القسم من الصحراء المصرية مجموعة من المنخفضات أهمها واحات الداخلة والخارجة والفرارة وسيوة ومنخفض القطارة ونشأة في هذه المنخفضات بعض المراكز الحضارية في العصور القديمة، إلا أنها في العصور اللاحقة لم تشهد نشاطا واسعا للمصريين بسبب قلة المياه وجفاف المناخ [٣٦].

أما الصحاري التي تمتد إلى الشرق من نهر النيل فتبدأ بالارتفاع التدريجي لتنتهي بسلسلة من الجبال التي تعرف بجبال البحر الأحمر،والتي تتخللها بعض الوديان مثل وادي الحمامات والعلافي التي سلكتها القوافل التجارية القادمة من بلاد (بونت) عبر البحر الأحمر، وكانت هذه الوديان وفيرة المياه في العصور المطيرة إلا أنها انحسرت منها المياه وأصبحت قليلة في العصور التاريخية مما ساعد على قيام الاستيطان بالقرب منها وسمح للجماعات التجارية بالانتقال عبرها بين البحر الأحمر والمستوطنات التي قامت عند ثنية قنا التي يشكلها نهر النيل، وتوقف الاستيطان في الصحراء الشرقية وأصبحت الحياة صعبة جدا بانقطاع المياه عن هذه الوديان [٣٧].

لقد كانت للبيئة الصحراوية أثرها الواضح في تاريخ الحضارة المصرية. إذ احتفظت رمالها الجافة بجثث الموتى من الفناء والعبث، وبوقوعها في منطقة صعبة وبعيدة عن أيدي السراق فقد احتفظت معابدها بالكثير من المخلفات الأثرية التي خدمت المؤرخين في تحديد تاريخ مصر القديم [٣٨].

ان مسحا جغرافيا لطوبوغرافية كل من العراق ومصر يرينا كيف ان هناك تشابه كبير في بعض التضاريس وأثرها على سير الحضارة في كلا البلدين فإذا كان لوادي النيل أثره الكبير في حياة سكان

مصر فان لواديي دجلة والفرات اثراً مشابهاً في حياة سكان العراق وإذا كان السهل الرسوبي الذي كونته مياه دجلة والفرات السهل الاخصب والأكثر فاعلية في تاريخ الحضارة العراقية القديمة فان الدلتا التي كونتها مياه النيل هي الأخرى الاخصب والأكثر أهمية في حياة المصريين قديما وحديثا أما الصحاري التي تشكل نسبة كبيرة من ارض مصر والتي كان لها الدور في تاريخ مصر القديم، فان البادية الغربية في العراق هي الأخرى تشغل مساحات شاسعة من ارض العراق وتغطي أجزاء منها رمال لا تكاد تختلف عن الرمال التي تغطي الصحارى المصرية وكانت هي أيضا مأهولة بالسكان قبل عصر الجفاف.

الأنهار:

ارتبط نشوء حضارة العراق منذ القديم بوجود نهريه الخالدين دجلة والفرات وروافدهما، واليهما نسب العراق في واحدة من أكثر أسمائه التاريخية التصاقا به وانسجاما معه (بلاد الرافدين)، وكذا الحال بالنسبة لمصر فان تاريخها ونشوء حضارتها ارتبطتا بشكل مباشر بنهرها الخالد النيل مصدر الحياة والخصب بالنسبة لها وصدق هيرودوتس في قوله المأثور ان (مصر هبة النيل) [٣٩] وبوسعنا ان نطلق مقولة كهذه على العراق لأنه في الحقيقة هبة نهريه الخالدين دجلة والفرات حيث عمل هذان النهران ومنذ عصور سحيقة على ترسيب الطمي والغرين في قاع من الصخور الرسوبية يمتد من بادية الشام غربا حتى المرتفعات الإيرانية شرقا، وصنعا بذلك سهلا كبير الحجم خصباً على امتداد (٢٨٠٠) ميل من الأرض الفاصلة المحصورة بين نهري النيل والسند [٤٠].

ينبع هذان النهران من الشمال حيث هضبة الأناضول ويجريان من الشمال إلى الجنوب (كالتوأمين) يقتربان حينا ويبتعدان حينا آخر حتى يلتقيان قرب نهاية ذلك السهل ليكونا نهرا واحدا هو شط العرب الذي يصب في الخليج العربي، ويرتفع وادي نهر دجلة عن وادي نهر الفرات في الجزء الجنوبي، مما جعل سكان العراق القدماء يقيمون مشاريعهم الاروائية منه باتجاه الفرات مثل نهر الدجيلة الذي أقامه على الأرجح الحاكم (انتيمينا) في عصر فجر السلالات (منتصف الألف الثالث ق.م) [٤١] أما في الجزء الشمالي فيكون العكس حيث يرتفع وادي الفرات عن دجلة بعد دخوله الأراضي العراقية بمقدار ٧–١٠م تقريبا وقد استغل سكان العراق القدماء هذه الظاهرة لشق الترع ومشاريع الري باتجاه دجلة مثل نهر عيسى وصرصر وملكا وكوشا والصراة [٤٢] ومن النتائج المهمة للمشاريع الاروائية لكلا النهرين، ان نشطت الزراعة بظهور الري الدائم وزيادة التجمعات البشرية في القرى الزراعية

المتكونة وتحولها إلى مدن ذات أنظمة حكم متطورة في الوسط والجنوب ثم ظهور نظام (دويلات المدن) ونشوء إحدى أهم الأوجه الحضارية العراقية وهي الحضارة السومرية والاكدية والبابلية [٤٢] وكان لنهري دجلة والفرات أهمية في النقل والمواصلات وازدهار التجارة ونقل المؤثرات الحضارية بين العراق وبلدان الشرق الأدنى القديم، كما كان لهيمنة البيئة الطبيعية للنهرين ووقوع المدن ومبانيها الرئيسة بالقرب منهما دور مؤثر في الفكر العراقي القديم الديني والأدبي والمعماري ولمجمل النتاجات الفنية، ففي مجال الفكر الديني خص سكان العراق القديم (دجلة والفرات) بالتعظيم والتقديس وعدوها من جملة الآلهة، ووصفوا النهرين في بعض التراتيل الدينية على أنهما النهران التوأم وفي أساطير الخليقة ذكر أنهما ينبعان من عين تيامة وهي الآلهة التي تمثل عنصر الماء المالح أي البحر [٤٣].

أما في المجال الأدبي فقد نظمت العديد من القصائد والأساطير التي تمجد هذان النهران وتنسب إليهما كل أسباب الخير والرفاه في العراق القديم. وفي المجال الفني نشاهد الكثير من الأعمال الفنية العراقية القديمة مستوحاة من هذين النهرين كمواضع الأواني الفوارة وما يتعلق بها من رموز الآلهة وحركة الأسماك في المنحوتات الأشورية البارزة [٤٤].

أما في بلاد مصر فيخترقها النهر الخالد (النيل) أو (حابي) كما سماه المصريون القدماء الذي لولاه لأصبحت مصر صحراء جرداء فهي بلد عديم المطر بوجه أساسي ولذلك فبدون النيل وما على جانبيه من الأرض الخضراء يتعذر العيش في مصر، أي انه لولا النيل ما كانت مصر [٤٥]. ونهر النيل يستمد مياهه من جبال بعيدة في الحبشة متجها نحو الشمال وفقا لميل الأرض ويسير النهر في رحلة طويلة يخترق خلالها صحرائين عظيمتين فسيحتين حتى إذا اقترب من البحر المتوسط كون دلتا خصبة هي الأخرى بلا شك من أقدم جنات الله في الأرض [٤٦] ومن أهم ما يميز نهر النيل وكان له اثر بارز في حضارة مصر وتاريخها هو فيضان هذا النهر وموعد فيضانه الذي يبدأ بالارتفاع سريعا خلال شهر آب وتتخذ مياهه اللون الأحمر الكدر بسبب كميات الطمى المتفتت التي يحملها من تربة الحبشة البركانية. ويبدأ تراجع مياه النهر مع بداية تشرين الأول ويستمر بالتراجع حتى يصل أدنى مستوى له في أيار، وهو بهذا الموعد لفيضانه يوافق الدورة الزراعية في مصر مما جعل ارض مصر تعطي غلتين وربما ثلاثة في السنة، والنيل على العكس من دجلة والفرات في فيضانه إذ لا يسلك سلوكا مفاجئا في ذلك فضلا عن انه يحمل ما يكفي من الطين ما يكفي لتخصيب الأرض دون ان يؤدي إلى طمر القنوات كما ان مياهه خالية من الأملاح [٤٧] واستفاد المصريون القدماء من انتظام فيضان النيل ودورته السنوية في معرفة التقويم السنوي وبداية السنة ونهايتها كما تعلموا الحساب عندما بدأوا يراقبون الفيضان ويحاولون التحكم فيه فضلا عن أنهم

جمعوا الضرائب على أساسه، كما كان لنهر النيل دور فعال في الاتصالات بين أجزاء مصر العليا ومصر السفلى من خلال الاستفادة من قوة تيار النهر عند السفر شمالا ومن ريح الشمال القادمة من البحر المتوسط عند السفر جنوبا [٤٨].

وقد كان للنيل اثر كبير في حياة المصريين القدماء حيث أنهم قدسوه كما قدس العراقيون القدماء دجلة والفرات وعظموه وتصوروه على شكل إنسان كما كتبوا عنه في أدبياتهم حيث جاء في نص على احد أهرامات الأسرة السادسة (يرتعد أولئك الذين يرون حابي (النيل) يضرب الأرض بأمواجه، ولكن المراعي تبتسم والشواطئ تزدهر) [٤٩] وتقديسا له خصصوا له عيدين مهمين الأول منهما يقع في حزيران واسمه ليلة الدمعة ويحتفلون بالعيد الثاني في حدود منتصف آب وفي مصر اليوم ما يضاهي هذا العيد وهو ما يعرف عند المصريين بكسر السد [٥٠].

أثر البيئة الطبيعية في الإنسان:

لقد كان للبيئة الطبيعية أثرها البارز في حياة الإنسان سواءً في العراق القديم أو مصر القديمة وكان لها علاقة مباشرة في نشوء وتطور أولى المعتقدات الدينية وأولى أنظمة الحكم والتقاليد الاجتماعية والتركيب السكاني والكثافة والأنشطة الاقتصادية ففي العراق نرى كيف ان عنف البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الحضارة العراقية أثرت بشكل كبير في حياة الإنسان العراقي واتضح ذلك بشكل جلي في الكثير من معتقداته وأفكاره عن الكون والآلهة والصراع بين قوى الخير والشر وخلق الإنسان وغير ذلك مما كان له الأثر حتى في النظم الاجتماعية والمعتقدات والطقوس الدينية للإنسان العراقي القديم. فظاهرة فيضان دجلة والفرات مثلا كانت تقض مضاجع العراقيين عندما كانت تنكر على غير انتظار أو انتظام فتحطم سدودهم وتغرق مزارعهم وتترك في نفوسهم أثرا يشعرهم بضعفهم إزاء مثل هذه الظاهرة الطبيعية وتخلق لهم شعوراً من الخوف والقلق عبر عنه كتابهم بالقطع الأدبية الرائعة، والمقاطع التالية نماذج منها.

- والفيضان الواثب لا يقوى احد على مقاومته.
- والذي يهز السماء وينزل الرجفة في الأرض.
- يلف الأم وطفلها في غطاء مريع.
- ويحطم يانع الخضرة في حقل القصب.
- ويغرق الحصاد إبان نضجه [٥١].

وكان لموقع العراق وطوبوغرافية أرضه إثرهما في جعله بلدا مفتوحا أمام هجرات وغزوات الأقوام في مختلف العصور، بعكس موقع وطوبوغرافية مصر التي اكسبها منعة بوجه الأقوام الغازية والمهاجرة، حيث ولد انفتاح العراق شعورا عند سكانه بعدم الاستقرار والاطمئنان مما دفعهم لبناء الأسوار حول مدنهم منذ فجر الحضارة والاهتمام بالاستحكامات الحربية واختيار المواقع المحصنة لإقامة مدنهم وعواصمهم (٥٢) كما أثرت البيئة الطبيعية بشكل واضح في مجال المعتقدات الدينية وفي بلورة الأفكار الخاصة بنظام الحكم وفي سير الأحداث السياسية والحضارية التي رسمت تاريخ العراق، كما كان للبيئة الطبيعية التي عاش في كنفها الإنسان في العراق القديم دور بارز في توجيهه وإرغامه أحيانا لإتباع أسلوب معين ونظام خاص دون غيره وذلك لإيجاد السبل والوسائل الكفيلة بالسيطرة على قسوة الطبيعة وتسخيرها لخدمته، وكان لخوف الإنسان من الطبيعة وعنفها وقسوتها وحذره من بطشها وتفاعله معها أثر كبير في نفسيته فكان حذرا متيقظا عنيفا قاسيا متأزما متوقعا حدوث المفاجآت حاد الطبع اهتم بحياة الدنيا دون الآخرة(٥٣) وامتد تأثير البيئة الطبيعية على المعتقدات الدينية للإنسان العراقي القديم عندما راح يتخيل بفكره المتواضع آنذاك ان هناك قوة خفية وأرواحا منشرة تسيطر على الكون وتسير الظواهر الطبيعية وراح يتودد إليها بالعبادات والمناجاة طمعا بإحسانها وخوفا من غضبتها جسّدها على هيئة آلهة وقرن بكل آلهة من تلك الآلهة عنصرا من عناصر الطبيعة أو مظهرا من مظاهر القوة حتى تجاوزت عدد الآلهة في العصور التاريخية الألفين اله والهة (٥٤).

أما في مصر القديمة فقد أثرت البيئة الطبيعية في حياة الإنسان بشكل ربما اختلف بعض الشيء عما هو عليه الحال في العراق إذ منح الموقع الجغرافي لمصر وطوبوغرافيتها بيئة امتازت بعزلتها عند الأقوام الأخرى وحدود منيعة حالت دون تمكن الغزاة أو المهاجرين اجتيازها، كما وفرة طبيعتها المواد الضرورية كالحجارة والذهب والنحاس وغيرها أضف إلى ذلك الضمان والطمأنينة التي شعر بها الإنسان المصري القديم نتيجة لتوفر المياه والطمى اللازم لإخصاب الأرض الذي يأتي به فيضان النيل، وكان للشمس وسطوعها الدائم في سماء مصر دور بارز في معتقدات المصريين حيث سموها ورأوا فيها الإله الخالد (٥٥). ومن مميزات البيئة الطبيعية المصرية الأخرى والتي كان لها أثر في طبيعة الإنسان المصري هو ذلك التشابه في الطبيعة المصرية وتناظرها، إذ يشق النيل مجراه وسط البلاد وعلى كلتا جهتيه تمتد حقول خضراء يانعة بحيث تناظر الضفة الغربية أختها الضفة الشرقية وتشبهها فكان ذلك عاملا مهماً اشعر المصريين منذ أقدم العصور التاريخية على وجود ترابط طبيعي بين أجزاء أرضهم ومدى اتصال مصالحهم. فضلا عن ان العزلة الجغرافية أثرت

في نفسية المصري القديم وأعطته الثقة والاعتداد بالنفس والاطمئنان من غزو الأقوام المجاورة لهذا لم يفكروا كأقرانهم العراقيين القدماء في إحاطة مدنهم الأولى وقراهم بالأسوار [٥٦] وهكذا أعطت البيئة الطبيعية المصرية لساكنيها إحساسا سعيدا بالطمأنينة والتفاؤل والاستقرار والثبات وعدم توقع المفاجأة، إلا أن هذا لا يعني ان البيئة الطبيعية المصرية كانت خالية من المشاكل التي أثرت في نفسية وسلوك الإنسان المصري القديم إذ كانت طبيعتها قاسية وطائشة إذا تركت بدون ضبط خصوصا وان نيلها قد يكون متقلبا من حيث الزيادة والنقصان في كمية فيضانه مما يترتب عليه أما الدمار والتخريب في الحالة الأولى، والمجاعة والقحط في الحالة الثانية مما تطلب بالتالي جهودا استثنائية وكفاحا وصبرا من الإنسان المصري وهكذا تقف عناصر البيئة الطبيعية المصرية مع جهود إنسانها وإبداعاته الفكرية لتنتج واحدة من أرقى وأقدم الحضارات الأصيلة التي عرفها التاريخ ما زالت أثارها خالدة حتى اليوم.

المصادر والهوامش

١. علي، فاضل عبد الواحد. وسليمان، عامر. عادات وتقاليد الشعوب القديمة. الموصل ١٩٧٩ ص٧.
٢. فرانكفورت، هنري وآخرون. ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ط٢ بيروت ١٩٨٠ ص٣٤٧
٣. باقر، طه. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج٢، ط٢، بغداد، ١٩٥٦. ص٦-٨
٤. زايد، عبد الحميد. مصر الخالدة مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية، القاهرة. ١٩٦٦. ص هـ من المقدمة.
٥. الاحمد، سامي سعيد. العراق القديم، بغداد. ١٩٧٨. ص١٤٠
٦. رو، جورج. العراق القديم، ترجمة حسين علوان حسين، بغداد، ١٩٨٤. ص١٩.
٧. عبد الله، محمد صبحي، العلاقات العراقية –المصرية في العصر –القديمة، ط١، بغداد ١٩٩٠. ص١٧.
٨. الخلف، جاسم محمد، جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، ط٣، القاهرة، ١٩٦٥ ص٩.
٩. الدباغ، تقي، العراق في العصور ما قبل التاريخ، العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣، ص٣٥-٣٦.
١٠. الدباغ، تقي، الثورة الزراعية والقرى الأولى، حضارات العراق، ج١، بغداد، ١٩٨٥. ص٢٥.

١١. أبو بكر، عبد المنعم، العراق القديم تاريخه وحضارته، حضارة مصر والشرق القديم، مجموعة من الباحثين المصريين، القاهرة (د–ت) ص٢٥٤.

١٢. الاحمد، سامي سعيد، العراق القديم، المصدر السابق، ص١٧٤.

١٣. الدباغ، تقي، حضارة العراق، المصدر السابق، ص٢٢.

١٤. سفر، فؤاد، البيئة الطبيعية القديمة في العراق، مجلة سومر، مج ٣٠، ١٩٧٤. ص٢.

١٥. سليمان، عامر، العراق في التاريخ القديم، ج١، موجز التاريخ السياسي، الموصل، ١٩٩٢، ص٢٨.

١٦. علي، فاضل . عبد الواحد وسليمان، عامر، عادات وتقاليد، مصدر سابق، ص١٩٧.

١٧. ويلز، أ.ج.، معالم تاريخ الإنسانية، ط٢، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٥٦. ص١٥٦.

١٨. زرقانة، إبراهيم احمد، الجغرافية التاريخية، القاهرة، ١٩٦٦، ص٥١٧.

١٩. عبد الله، محمد صبحي، المصدر السابق، ص٢٦.

٢٠. زايد، عبد الحميد، المصدر السابق، ص٩.

٢١. حسن، سليم، مصر القديمة، ج١، القاهرة، ١٩٤٠، ص١٤٠.

٢٢. Harvey, Set al; Area Hand book for Iraq, Washington، 1971، p، 15.

٢٣. فرحان، وليد محمد صالح، العلاقات السياسية للدولة الآشورية، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٦، ص٣٢.

٢٤. الخلف، جاسم محمد،/المصدر السابق، ص٥١.

٢٥. Jacobson, Th and Adams R McC "Salt and silt in Ancient Mesopotamian Agriculture" Science. Vol. 128. 1958. P 1258.

٢٦. الخاتوني، عبد العزيز الياس سلطان، اثر البيئة الطبيعية في تاريخ وحضارة بلاد الرافدين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٠ م، ص٢٧.

٢٧. شريف، إبراهيم، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي، ج١، بغداد (د–ت)، ص٥٧.

٢٨. باقر، طه، المصدر السابق، ص١٠.

٢٩. حسن، سليم، المصدر السابق، ص٩.

٣٠. باقر، طه، المصدر السابق، ص٢٩.

٣١. عبد الله، محمد صبحي، المصدر السابق، ص٢٩.

٣٢. باقر، طه، المصدر السابق، ص١٠.
٣٣. زرقانة، إبراهيم احمد، المصدر السابق، ص٥١٦.
٣٤. زايد، عبد الحميد، المصدر السابق، ص١٢-١٣.
٣٥. زرقانة، إبراهيم احمد، المصدر السابق، ص٣٦.
٣٦. زايد، عبد الحميد، المصدر السابق، ص١٤.
٣٧. زرقانة، إبراهيم احمد، المصدر السابق، ص٣٥-٣٦.
٣٨. باقر، طه، المصدر السابق، ص١١-١٢.
٣٩. شو، ا.ج، الحضارات الكبرى – مصر، ترجمة بهية كرم، بيروت، ١٩٧٥، ص٦.
٤٠. رو، جورج، المصدر السابق، ص٥٣.
٤١. الدباغ، تقي، العراق في العصور ما قبل التاريخ، المصدر السابق، ص٢٨.
٤٢. الخاتوني، المصدر السابق، ص٣٣.
٤٣. المصدر نفسه، ص٣٤.
٤٤. النعيمي، هاني محي الدين، البيئة في الفن التشكيلي لحضارة وادي الرافدين (٢٠٠٠-٥٣٩ ق.م) أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٩٩، ص١٩.
٤٥. شو، أ.ج، المصدر السابق، ص٦.
٤٦. بريستد، جيمس هنري، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة حسن كمال ط١، القاهرة، ١٩٢٩، ص٩.
٤٧. باقر، طه، المصدر السابق، ص٨.
٤٨. فرانكفورت، هنري وآخرون، المصدر السابق، ص٥٠-٥١.
٤٩. زرقانة، إبراهيم احمد، المصدر السابق، ص٦٠.
٥٠. باقر، طه، المصدر السابق، ص٥-٦.
٥١. فرانكفورت، هنري وآخرون المصدر السابق، ص١٤٧.
٥٢. غلاب، محمد السيد، الجوهري، يسري الجغرافية التاريخية في عصر ما قبل التاريخ وفجره، القاهرة ١٩٦٨، ص٥٦٥،٥٦٤.
٥٣. الدباغ، تقي، المصدر السابق، ص٥٥.
٥٤. الاحمد، سامي سعيد، المعتقدات الدينية في العراق القديم، بغداد، ١٩٨٨، ص٥.
٥٥. باقر، طه، المصدر السابق، ص١٢.

٥٦. غلاب، محمد السيد، والجوهري، يسري المصدر السابق، ص٥٦٤.

Aspects of environmental impacts
In the Iraqi and Egyptian civilizations
A comparative study

Dr. Abdul Aziz Elias Sultan
College of Arts / University of Mosul

Abstract:
Most researchers agree that the natural environment is the primary factor in the emergence and development of civilizations, and that the relationship between the natural environment, the stage of the event and the person who made the event is an eternal relationship, and although we appreciate the natural role of a major role in defining the basic features of civilization, we must not lose sight of the human role, intellectual creativity, actual efforts, patience, and struggle in this process. The natural environment has affected the life and history of the inhabitants of ancient Iraq and ancient Egypt in a clear way.